غريغوريوس ابو الفرج المعروف بابن العبري

للاب لويس شيخو اليسوعي

(تابع لما سبق)

٥

فما كاد ابن العبري يتبوأ منصبهُ هذا الجديد حتَّى جعل يفرغ اقصى ما لديهِ من الهمَّة لاصلاح امور رعيَّتهِ. على انَّهُ لم يستقرّ بجوباس زمنًا طويلًا ليحصد ما زرعهُ في القلوب من البذر الجيّد فلمَّا كانت السنة التالية (١٢٤٧) قدَّم اهرون اسقف لاقابين الاستعفاء من كرسيه وانتقل الى بيت المقدس ليقضي فيهِ باقي حياتهِ في الخلوة واعمال النسك فوجَّه البطريرك اغناطيوس سابا نظرهُ الى ابن العبري ليقيمهُ خلفًا للاسقف المتنازل

فلبَّى ابن العبري الى دعائهِ واستوطن لاقابين وهي بلدة تجاور جوباس وصرف همَّتهُ الى خير هذه الحظيرة الجديدة فادار شؤونها بنيرة ونشاط مواصلًا السعي فيما يعود على ابناء ابرشيتهِ بالمنافع العميمة. وكانت مدَّة جلوسهِ على كرسي لاقابين خمس سنوات بالغ بالجدّ وراء مصالح رعيَّتهِ

وفي تلك الاثناء مات البطريرك اغناطيوس وليّ نعم ابن العبري (سنة ١٢٥١) فحدث بعد وفاتهِ تشعُّب وشقاق في الملَّة اليعقوبية وانقسم القوم الى حزبين اختار احدهما بصفة بطريرك ديونيسيوس (اهرون عنجور) اسقف ملطية وتعصَّب الآخر للمفريان يوحنَّا ابن المعدني ولهُ قرَّ الفرنج في انطاكية. وكان ابن العبري منتصرًا لديونيسيوس على ابن المعدني ولم يزل يعضد امرهُ ويؤيد سلطانهُ الى ان قُتل ديونيسيوس في شباط من سنة ١٢٦١ قتلهُ في الكنيسة بعض انصار خصمهِ فصار الامر كلهُ لابن المعدنيّ وعاد السلام للملَّة بعد استفحار الشقاق (١

---

١) راجع تفاصيل هذا الشقاق في تاريخ الكنيسة لابن العبري الجزء الاول (ص ٦٩٥ – ٧٠٨) ويظهر من معرض كلامهِ انَّ ديونيسيوس عنجور كان يطمح بالبصر الى المرتبة البطريركيَّة وانَّ انتخابهُ لم يكُ مطابقًا للقوانين البيعيَّة. ولا غرو انَّ ابن العبري انحاز اليهِ لانَّهُ كان سابقًا اسقف وطنهِ ملاطية محسنًا اليهِ والى والدهِ اهرون

وكان ديونيسيوس مكافأة لما اظهرهُ لهُ ابن العبري من الوداد وقدَّمهُ من الخدَم رقّاهُ الى اسقفيّة حلب. وكان كرسي حلب قد خلا في سنة ١٢٥٣ بارتقاء صاحبهِ باسيل (صليبا) بن يعقوب وجيه الى رتبة مَفريان باسم اغناطيوس. قلّدهُ اياها ابن المعدني فعيَّن لهُ خلفًا في حلب متّى الجرميّ. لكنَّ ديونيسيوس قرن ابن المعدني ارسل ابن العبريّ ليزاحم متّى المذكور في منصبهِ فصار اسقفان لكرسي واحد

وسمع المفريان اغناطيوس (صليبا بن يعقوب وجيه) بما فعل ديونيسيوس وكان هو متشيّعًا لابن المعدني فقدِم حلب واخذ يعاكس ابن العبري قرينهُ السابق في الدروس الطبيّة والفلسفيّة واعتضد عليهِ بالملك الناصر صاحب حلب فاضطرّ ابو الفرج ان ينقطع عن الامور ويختلي في بيت ابيهِ وكان ابوهُ يسكن حينئذٍ حلب. ثمَّ عاد ابو الفرج الى ملطية ونزل عند البطرك ديونيسيوس في دير برصوما

وبعد هذه الامور بسنة سافر ابن العبري الى السلطان في دمشق يطلب منهُ براءة لديونيسيوس عجزوز مع حمايتهِ على المفريان فاكرم الملك الناصر وفادتهُ وسلّط ديونيسيوس على يعاقبة المشرق كما كان عزّ الدين صاحب الروم سلّطهُ قبلًا على المغرب وكتب الى صاحب حلب ليأخذ بساعد ابن العبريّ ففعل وسلّمهُ كنيسة اليعاقبة واستبدّ الاسقف برعاية ملّتهِ فيها. فخرج المفريان اغناطيوس من حلب مغضبًا سرًّا الى الفرنج وسكن طرابلس متعاطيًا فنّ الطبّ الى وفاتهِ سنة ١٢٥٨. قال ابن العبريّ في حقّهِ «انهُ كان متقنًا للطبّ عارفًا بعلوم القدماء لاسيَّما الفلسفة واحتفل بجنازتهِ قومٌ كثير من رهبان الفرنج وكهنتهم وكان كتب لكنائسهم واديرتهم يقسم من مالهِ (١)» وبقي كرسيّ المفريانيّة خاليًا بموتهِ ست سنين

ولمَّا اجتمع شتات الملّة بعد وفاة ديونيسيوس كما سبق ادّى ابن العبري فروض الطاعة الى يوحنّا بن المعدني وحظي عندهُ حتّى انَّهُ فكّر في ترقيتهِ الى منصب المفريان واجهر بذلك فحال الموتُ دون تتميم رغبتهِ. وكانت وفاة ابن المعدني في سنة ١٢٦٣

ولابن المعدنيّ تآليف حسنة بالسريانية والعربية منها كتاب نافور وديوان شعر بالسريانيّة وثماني عشرة خطبة بالعربيّة وكلُّها محفوظة في خزائن الكتب الشرقيّة باوربّة لاسيَّما مكتبة الفاتيكان. ولهُ ايضًا مقالة بالعربيّة في التعزية مصونة في مكتبة اكسفرد.

(١) Barhebræi *Chronicon Eccl.*, III, 427

وكان اصله من معدن وتولّى اسقفيّة ماردين (١

وممّا حدث لابي فرج في مدّة اقامته على كرسي حلب ما اخبر به عن دخول المغول في هذه المدينة سنة ١٢٥٨. وكان هولاغو قائدهم فتح بغداد عنوةً وقتل الخليفة المستعصم بالله وازال الدولة العبّاسيّة ثم تقدّم الى جهات . الغرب مع جيوشه الظافرة وهو ينهب في طريقه ويحرق ويسبي الى ان وصل حلب فخرج ابن العبري اليه يستعطفه لاهل ملّته ولكنّ شفاعته لم تجدهم نفعًا لانّ الجند كانوا فتحوا البلد وانتشروا في كل انحائه واعملوا السيف في السكّان. وجاء في تاريخ الدول (ص ٤٨٧) انّهُ قُتل في حلب اكثر ممّا قُتل في بغداد

٦

واجتمع اساقفة اليعاقبة بعد وفاة ابن المدني ليختاروا لهم بطريركًا وكان اجتماعهم في دير الجويقات قرب المصيصة من اعمال قيليقية فاقاموا باتّفاق الاصوات يشوع رئيس دير الجويقات المذكور فساموهُ في سادس كانون الثاني من سنة ١٢٧٩ وتلقّب باسم اغناطيوس الثالث ثمّ اهتمّ البطريرك الجديد مع الاساقفة المنتخبين بنصب مفريانٍ على المشرق يخلف لاغناطيوس بن يعقوب وجيه المار ذكرهُ فوقع الاختيار على ابي الفرج بن العبري وكان مرشّحًا لهذه المرتبة منذ زمن طويل كما سبق

ولم يتولَّ غريغوريوس ابو الفرج منصبهُ الجديد الّا بعد ذلك بايّام وكان البطريرك والاساقفة شخصوا الى سيس لتقدمة مراسيم الخضوع لهيثوم (حاتم) ملك قيليقية فصار هناك حفلة عظيمة حضرها الملك واولادهُ واعيان دولته مع رؤساء اكليروس الارمن وجمّ غفير من الشعب تقلّد ابنُ العبري رتبةَ المفريان بابّهة وشرف لا مثيل لهما في ١٩ كانون الثاني. وتسنّم المفريان المختار منبرَ الخطابة والقى امام جمهور الحضور خطبة نفيسة عن رئاسة الكهنوت افتتحها بقوله تعالى في المزامير (١٣٨ : ٥): «انت يا ربُّ قد احطتَ بي وجعلتَ عليَّ يدك». وكان ذلك اليوم نهارًا مشهودًا (٢

ولعلّ القرّاء يفكّرون في ما عسى تكون هذه الرتبة التي الشائعة في بلادنا فيسألون

(١ Wright, *Syriac literature*, 263-265 — Ibid. II, 707-743

(٢ راجع تاريخ الكنيسة لابن العبري الجزء الثاني (ص ٧٥٠ — ٧٥٢)

عن معنى كلمة المفريان وعمّا تخوّلهُ هذه المرتبة اصاحبها من السلطة. فاعلم ان المفريان لفظة سريانية اصلها من فعل فرا (ܦܪܐ) اي نما وأتى بثمر. فيكون وزن فعّل منهُ فَرِي (ܦܪܝ) اي أثمر وأولد. واسم الفاعل مَفْرِيانا (ܡܦܪܝܢܐ) وهو المولّد والمثمر. فلمّا انتشرت الشيعة اليعقوبية في أنحاء المشرق وكان بطاركتهم بعد ساويروس اتخذوا كرسيّهم انطاكية رأوا انّهُ لا بُدَّ للبطاركة من نائب يقوم في بلاد العراق وبابل ونواحي ما بين النهرين الشرقيّة بامور ملّتهم ويدافع عن حقوقهم في وجه السلطة عند ملوك العجم فوضعوا رتبة المفريان يريدون بذلك انّ صاحبها يثمر فكنيسة ليس ابناء فقط كسائر الاساقفة بل آباء ورؤساء. وكان اوّل ما وضعت هذه الرتبة في القرن السادس في ايام يستنيان الملك وهي لم تزل شائعة عند اليعاقبة الى يومنا ومن جملتهم كان في سنة ١٨٢٨ البطريرك انطون سمجيري الطيّب الذكر قبل رجوعهِ الى الكثلكة

وكان الاساقفة ورؤساء الاساقفة تحت رئاسة المفريان لهُ عليهم ملءُ السلطان كما للبطرك على اساقفتهِ. وربّما دُعي عند بعض كتبة اليعاقبة والسلطرة باسم الجاثليق اي الاسقف العام فتكون هذه الرتبة بمقام كبير رؤساء الاساقفة (Primat) وكان بين المفريان وبطريركهِ علاقة كبيرة يخضع ذاك لهذا في الامور العمومية الآيلة لخير الملّة جمعاء. وكان البطريرك لا يُختار الّا برضى المفريان ويُختار المفريان برضى البطريرك. امّا مقام المفريان فكان في تكريت على ضفّة دجلة في وسط الطريق بين الموصل وبغداد وكانت هذه المدينة سابقًا عامرةً حافلة بالنصارى وهي اليوم صغيرة لا يتجاوز عدد سكّانها ستة آلاف نسمة وهم مسلمون اجتمعنا بهم في اثناء سفرنا الى بغداد ونحن راكبون الطوف من الموصل فأنبأونا انّ النصرانيّة كانت شائعةً بينهم قبل قرنين وانّهُ لا تزال آثار الكنائس باقيةً في بلدهم. ولا بدع انّ كنيسة المفارين كانت من اعظمها وأتقنها

وكان اوّل ما سعى بهِ ابن العبري بعد ارتقائهِ الى رتبة المفريان ان يوطّد سلطة البطريرك اغناطيوس الثالث ويمنع الانشقاق في الملّة. وذلك ان بعض اهل الفتن ادّعوا بانّ انتخاب البطريرك والمفريان لم يكن شرعيًّا فقرُّوا بعض الاساقفة وجمعوهم ليختاروا لهم بطريركًا آخر ومفريانًا غير ابن العبري ورحلوا الى مدينة أرزنجان من حواضر الارمن حيث كان حلّ هولاغو قائد المغول. وكان جلّ ما يبتغون ان يستميلوهُ الى عصبتهم وينالوا منهُ كتابًا يقرُّ لهم بالرئاسة. فخاف اغناطيوس انّ يتّسع الخرق ويتفاقم الصدع فسيّر ابنَ العبريّ

الى عظيم المغول ليطلعه على حقيقة الامر وينال شياة اعتداء الخصوم ويمهد له الطريق للدخول على هولاغو. فاسرع السفير لقضاء هذه المهمة ولم يزل يُوصل السير بالسُّرى حتى بلغ ارزنجان

وكان في غضون سفره يستعين بما عنده من المعارف الطبيّة ليدخل على الولاة وينال الحظوى لدى عمّال هولاغو ووصاةً للامتثال بين يديه فانت مساعيه بالمرام. فانّ هولاغو استقبله بمزيد الاكرام وابدى له غاية التجلّة وامر عمّاله بان يتلقّوا البطريرك القادم بغاية الحفاوة ويترحّبوا به ويكرموا مورده في طريقه. ولمّا وصل البطريرك ادخله المغربان الى هولاغو فسُرّ به واناله براءةً تثبت حقوقه وشفعها بكتاب آخر اثنى به على المغربان واطنب في تحامده. وفي السنة التالية توفي هولاغو وملك عوضه ابنه أباقا فاحسن المعاملة الى البطريرك اغناطيوس والى ابن العبري جريًا على طريقة ابيه

وبعد مواجهة هولاغو بايام قلائل رجع البطريرك الى طور عابدين ثمّ الى ملطية فسكن دير برصوما كسلافه(١). امّا ابن العبري فانه توجه الى تكريت ليستلم كرسيّه فكان له فيها استقبال حسن من اهل ملّته ومن غيرهم احتشدوا لملتقاه وسُرّوا بقدومه ايّ سرور. وما كان ابن العبري ليخيّب آمال رعيّته فيه. واطلق يقال انّه نهض باعباء مقامه السامي نيّفًا وعشرين سنة باذلًا ما لا مزيد عليه من علوّ الهمّة والنشاط صارفًا عنايته الى اصلاح شؤون ملّته المادّيّة والادبيّة

٧

وكان اوّل ما فكّر فيه تفقّد ابرشيّته الواسعة فزار اوّلًا الموصل وكانت الجموع تحفّ لاستقباله في كل بلدة يجتازها يتقدّمهم الكهنة والذرات وكلّهم يتسابقون لاظهار عواطف الولاء والابتهاج بقدومه. ولمّا انتهى الى الموصل تقاطر الشعب للاقائه وضجّ عند رؤياه باصوات الفرح بينما كانت الكهنة ترنّم بالاناشيد الروحية. وما لبث فيها الّا ريثما استراح وتلقّى وفود السلام ثم صعد الى دير مار متّى ليزور رهبانه ورقّى فيه الى درجة الاسقفيّة احدهم لكنيسة نُوهَدْرة وهي مدينة حصينة على الفرات

ثم عاد ابن العبري الى الموصل ليهتمّ بشؤون الرعيّة فوجد اهل ملّته في اسوإ حال

١) وليطاركة اليعاقبة مركز آخر في شمالي شرقي ماردين على نحو اربعة اميال منها وهو دير الزعفران وفيه دخلنا على البطريرك الحالي عبد المسيح في تشرين من سنة ١٨٩٦

لانَّهُ لم يبقَ منهم الَّا قومٌ يسير وذلك انَّ نصارى الموصل كانوا زايلوا بلدتهم قبل ذلك باربع سنين خوفًا من صاحبها الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ وكان اساء اليهم المعاملة . فخرجوا الى اربل واستوطنوها . وكان اكثرهم من اليعاقبة فبنوا لهم هناك بيعةً . فجاء بعد خروجهم عسكر المغول باغراء شمس الدين بن يونس احد امراء الملك الصالح وفتحوا الموصل ونهبوها وقتلوا فيها مدة ثمانية ايام عالمًا لا يُحصى . وكان الملك الصالح من جملة الاسرى قتلهُ بعد ذلك هولاغو وتولَّى الموصل مكانهُ شمس الدين بن يونس ثم تغير عليهِ المغول وقتلوهُ وقرَّروا بدلهُ حاكمًا زكيّ الاربلي

فصرف ابن العبري في الموصل ايامًا ينظر في حاجات رعيَّتهِ ويجبر قلوبهم ويوصي بهم ذوي الامر ثمَّ ركب دجلة يقصد بغداد وفيها وقتئذٍ قسمٌ كبير من مرؤوسيهِ

(ستأتي البقية)

كتاب
تاريخ بيروت

لمحمد بن صالح (تابع لما سبق)

وقرَّر بيدمُر على السور المذكور جامكيَّة من المرتَّب المذكور وبقيت هذه المرتَّبات مستمرَّة الى عود السلطان الملك الظاهر برقوق(١ الى السلطنة الثانية ونيابة ألطُنبغا الجوباني(٢ بالشام . فاستقطع مُقبل الشمس(٣ متولي بيروت التوفر في الميناء وبعض المرتَّبات بامريَّة الطباخاناة . واحال بما عليهِ من البدل والديون على الصادر من البهار وامر باخذهِ من دار العشر بدمشق وجعل المتكلم عليهِ صدقة التريكيّ الترجمان(٤ فاستقرَّ ذلك

---

١) تولَّى الامر في مصر من سنة ٧٨٤ الى ٨٠١ هـ (١٣٨٢–١٣٩٨م) . وهو اوَّل دولة المماليك الشراكسة

٢) كان احد مماليك السلطان الملك الظاهر برقوق ولَّاهُ نيابة الشام في اواخر القرن الرابع عشر للمسيح

٣) مراده بالشمس شمسُ الدين مُقبل ولم نحصل على شيء من اخباره

٤) نظنُّ انهُ يريد الامير صلاح الدين صدقة من امراء الارسلانيين المتوفَّى سنة ٧٨٩ (١٣٨٧م)